مجلة جامعة سومر للعلوم الانسانية (ISSN: 2959-5436)
SUJHUS 2023 (آب), مجلد 1,عدد 1 ,الصفحات 135-149

الاستشراق في ظل تداعيات الحملة الفرنسية على مصر

أ.م.د. أحمد حاشوش عليوي[1] , أ.م.د. حيـــــدر علي خلف[2]*
كلية التربية الاساسية, جامعة سومر, ذي قار, العراق 1, 2

الملخص

كان لموقع مصر الجغرافي المطل على مفترق طرق الشرق والغرب، إلى جانب تمتعها بمكانة مهمة في المنطقة لامتلاكها ساحل طويل على بحري المتوسط والأحمر، لذا أصبحت محط أنظار الدول الغربية وفي مقدمتها فرنسا التي زادَ نفوذها السياسي في أوربا بعد ثورة عام 1789، ولعله العامل الذي دفعَها للتدخل بشؤون مصر واحتلالها، الأمر الذي يمكن أن نعده عاملاً أغرى فرنسا للتوجه نحو الشرق، لاسيما ان فرنسا كانت تعيش مرحلة من الصراع العسكري مع بريطانيا التي ألبت دول أوربا الملكية لإسقاط الثورة الفرنسية وانقاذ الملك، فقد وصل ذلك الصراع إلى قمته بعد اعدام الأخير واعلان الجمهورية في فرنسا.

وعلى الرغم من أن فرنسا قد هزمت اعداءها في أوربا، إلّا أن بريطانيا ظلت شاهرة السلاح بوجهها، معتمدةً على موقعها الجغرافي الذي جعلها بمعزلٍ عن حروب القارة، فضلاً عن قوة سلاحها البحري الذي لا تمتلك فرنسا شبيهاً له، لذلك فكرت الأخيرة بمحاربة بريطانيا في مستعمراتها التي تعد مصدر ثرواتها وهيبتها، فعمدت على احتلال مصر عام 1798، لتنطلق منها إلى الشرق وتحديداً الهند، التي تُعد "درة التاج البريطاني"، ومع أن ذلك المشروع فشل سياسياً وعسكرياً، غير انه ترك آثاراً خطيرة في حياة مصر والشرق؛ إذ عُدت حملة نابليون أحدى عوامل نهضة الشرق الرئيسة، لِما جاءت به من منجزات حضارية لم تعرفها المنطقة بعد، وقد تجلت فيها مظاهر الاستشراق عن طريق التداعيات التي تركتها تلك الحملة على مصر، لذا وجدنا من الاجدر دراسة تلك المظاهر من خلال الأساليب والطرق التي اتبعها نابليون أثناء حملته والتي ظهرت فيها بشكل جلي دوافع الفرنسيين الاستشراقية إبان تلك الحملة.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق، الحملة الفرنسية على مصر، نابليون بونابرت.

Orientalism in light of the repercussions of the French campaign on Egypt

[1]Dr. Ahmad Hashush Aliwi, [2*]Dr. Haider Ali Khalaf Al-Okaili
[1,2]College of Basic Education, Sumer University, Thi-Qar, Iraq

Abstract

Egypt's geographical location overlooked the crossroads of East and West, in addition to its enjoyment of an important position in the region due to its possession of a long coast on the Mediterranean and the Red Sea, so it became the focus of attention of Western countries, led by France, whose political influence in Europe increased after the revolution of 1789, and perhaps the factor that pushed it To interfere in the affairs of Egypt and occupy it, which we can consider as a factor that tempted France to turn towards the east, especially since France was living in a stage of military conflict with Britain, which urged European monarchies to overthrow the French Revolution and save the king. That conflict reached its peak after the execution of the king and the proclamation of the republic. in France.

Although France had defeated its enemies in Europe, Britain remained with arms brandishing its face, relying on its geographical location that made it isolated from the wars of the continent, as well as the strength of its naval force, which France has no equal to, so the latter thought of fighting Britain in its colonies, which It is the

* **Email address: d.haiderali2020@gmail.com**

source of its wealth and prestige, so it occupied Egypt in 1798, from which it set out to the East, specifically India, which is considered the "pearl of the British crown." Although this project failed politically and militarily, it left serious effects on the life of Egypt and the East. Napoleon's campaign was considered one of the main factors for the renaissance of the East, because of the civilizational achievements that the region had not known yet, and the manifestations of Orientalism were manifested in it through the repercussions left by that campaign on Egypt, so we found it more appropriate to study these aspects through the methods and methods that Napoleon followed. During his campaign, in which the orientalist motives of the French during that campaign were evident.

Keywords: Orientalism, the French campaign against Egypt, Napoleon Bonaparte.

المقدمة

بعد أن تحقق الغزو الفرنسي لمصر في عهد حكومة الإدارة عام 1798م تظاهر نابليون بونابرت قائد الغزو بالاهتمام بالإسلام والمسلمين من خلال كتاباته وأقواله، وبلا شك فإنَّ ذلك الأمر لم يكن نابعاً عن صدق وإنما ستاراً تذرّع به لخداع الشعب المصري والتغلغل إلى نفوسهم وكسب عواطفهم ومن ثُمَّ الولوج إلى بلدهم لجعلها مستعمرة فرنسية تدين بالولاء لفرنسا والطاعة لها لا غير، وهذا ربما ما دفع بنابليون أن يعتمد على بعض المستشرقين في حملته لدراسة تاريخ مصر، وتوفير المعلومات التي تسهل السيطرة عليها، فضلاً عن اطلاعه عما كتبه المستشرقون الفرنسيون عن بلاد الشرق بشكل عام ومصر بشكل خاص.

لذا نعتقد بأن الحملة الفرنسية على مصر كانت استجابة لما برَّزه الاستشراق الفرنسي من صورة خيالية عن بلاد الشرق، إذ كان الاستشراق غائراً في احشاء الحملة الفرنسية وتحديداً لدى قائدها نابليون بونابرت، ولعل الأخير لم يكن بعيداً عن ذلك بل كان له الاطلاع الواسع عما كُتب عن الشرق، وربما مكنه ذلك من استغلال ثقافته الشخصية في تضليل علماء ومشايخ مصر والتظاهر بأنه قد اعتنق الإسلام، ونتيجة لذلك جاءت دراستنا لموضوع " **الاستشراق في ظل تداعيات الحملة الفرنسية على مصر**"، لعلها تسد الفراغ في هذا الموضوع ولو بقدر معين. وممّا لا شك فيه أنّ هذا البحث يؤلف ركناً اساسياً من تاريخ الاستشراق، بوصفه منفذاً مهماً لتقصي الأسباب الحقيقية وراء تلك الظاهرة، والدوافع الرئيسة لاهتمام الغرب بالشرق التي مكنته -فيما بعد- من الولوج بين اطيافه.

وعلى الرغم من أنّ قسماً ليس بالقليل من الدراسات التاريخية قد تناول جوانب مهمة من الاستشراق، إلّا أنّها لم تركز على بعض التفاصيل المهمة عن الطريقة التي انتهجها المستشرقون لتحقيق غاياتهم؛ لذا ظلت الحاجة ماسة لكشف تلك السياسة المتمثلة بأسلوب بونابرت للتقرب من المجتمع المصري وايهامه بالإسلام.

وبناءً على ذلك، انطلقت دراستنا لتناول هذا الموضوع من هذه الناحية التي رسمت ملامح اتجاه استشراقي مثّله قائد الحملة عن طريق السياسة التي انتهجها في مصر والتي احاطها بالكثير من المظاهر الخادعة كزعمه أنه قد اعتنق الإسلام، وليظهر احترامه عمد إلى مجالسة العلماء وإداء بعض الممارسات والطقوس الشرقية، بغية التظاهر أمامهم أنه أصبح مسلماً.

وبغية إضفاء الموضوعية على هذه الدراسة، قُسّم البحث إلى مقدمة وثلاثة مباحث فضلاً عن الخاتمة، تناول المبحث الأول: أهداف الاستشراق ودوافعه، وقد توضحَّ من خلاله مساعي المستشرقين ودوافعهم لدراسة الشرق، محاولة لفهم غاياتهم وسبل تفكيرهم في الوصول إلى مبتغاهم، وجاء المبحث الثاني تحت عنوان: الاستشراق في أقوال نابليون بونابرت، أشرنا فيه إلى سياسة فرنسا الاستشراقية من خلال ما قاله بونابرت في خطبه ومنشوراته إلى المجتمع المصري، وكذلك ما نقل عنه من كلام حول الشرق بشكل عام ومصر بشكل خاص، ومن أجل التعرف على نهج بونابرت الاستشراقي.

بينما تطرق المبحث الثالث إلى "الاستشراق في مشاريع نابليون بونابرت وأفعاله، بغية التركيز بصورة خاصة على طبيعة الأعمال التي أمرَّ بونابرت القيام بها بغية إظهار الغرب بمظهر التقدم والتحضر الاجتماعي والثقافي الذي يجيز له التفوق على الآخرين، بينما حددّت الخاتمة بوضوح أهم الاستنتاجات التي توصلنا اليها في خاتمة البحث.

المبحث الأول. أهداف الاستشراق ودوافعه

تعرّض الاستشراق بوصفه اتجاهاً جديداً في الدراسة والبحث عن الموضوعات التي تخص الشرق عبر العصور المختلفة إلى الاختلاف حول طبيعته وأغراضه، ثُمَّ ارتفع ذلك الاختلاف ليشمل ماهيته، هل هو علم أو حركة فكرية أو

مذهب؟ ومع ذلك يمكن القول إن أبرز توصيف لهذا المصطلح في انه يمثل في حقيقته عموم اهتمام الغرب بالشرق، سواء كان ذلك عن طريق العلم أو الدراسة أو التبادل التجاري.. الخ، وهذا باعتقادنا هو المفهوم الاعم للاستشراق[1].

وقد برز هذا الاتجاه بشكل مكثف عندما أصبح الشرق بكل تفاصيل حياته بالنسبة للغرب مادة للدراسة وللبحث العلمي فضلاً عن جمع المعلومات العلمية، سواء كان الهدف استعمارياً أم معرفياً، أم علمياً، أم سياسياً، وطالما أن الغرب قد اهتم بالشرق ودراسة مواده وحضارته وعقائده وشخوصه وتضاريسه ومنافذه البحرية، فإنَّ جميع هذه الأمور يمكن عدها استشراقاً بالمفهوم العلمي[2].

ومع أننا في هذه الدراسة ليس بصدد تناول مفهوم الاستشراق والمراحل التأريخية التي ظهر فيها المستشرقون، وذلك بسبب أن الكثير من الباحثين قد تناول هذا الموضوع بشكل واسع، وقدموا دراسات وافية بخصوصه، لذلك فإنَّ من العبث اعادة دراستها ثانية أو إضافة شيء جديد إليها بعدما اشبعت ببحوث لا يمكن حصرها[3]، غير أن التصدي لغايات الاستشراق واهدافه لا بُدَّ من دراستها وتسليط الضوء على غوامضها، كي نطلع على الغايات التي دفعت بالمستشرقين إلى أن يقدموا هذا الكم الهائل من الدراسات المتعلقة بالشرق، وعليه يمكن تحديد بعض الجوانب الرئيسة التي عدها المختصون بأنها الاسباب التي تكمن وراء الاستشراق، ومنها:

(1) الدافع الديني: عدَّ الكثير من الباحثين بأن العامل الديني هو الطليعة في اندفاع الغرب من أجل دراسة الشرق والاطلاع على ماهيته، وهي لا ترمي إلى خدمة العلم بقدر ما تريد تشويه الاسلام والطعن فيه، خشية من انتشاره في المجتمع الغربي، لاسيما بعد أن وجدوا محاسن الدين الاسلامي وتأثيره على الشعوب الأمر الذي يهدد الديانة المسيحية، فكانوا يقدمون صورة خيالية عن الاسلام هي ابعد ما تكون عن الحقيقة، لذا عمدوا إلى الطعن في الاسلام وتشويه محاسنه وتحريف حقائقه بغية أن يثبتوا لمجتمعاتهم الخاضعة لزعامتهم الدينية أن الاسلام دين لا يستحق الانتشار، وان المسلمين قوماً همجاً لصوصاً وسفاكي دماء، يدفعهم دينهم للبحث عن الملذات الجسدية، ويبعدهم عن كل سمو روحي وخلقي[4]، وقد أكد بعض الكُتّاب الغرب هذه الحقيقة في مؤلفاتهم التي تناولت هذا الموضوع، وعلى سبيل المثال جاء عند ريتشارد سوذرن، في مؤلفه "صورة الإسلام في أوروبا..."، قائلاً: "ظلّ إحساس الشك والرعب يخترق الوعي الأوربي طوال العصور الوسطى فينخر خوالج الرضا عن الذات والامل بالمستقبل، وقد كان ذلك كله تقريباً عبر التهديد من جانب الإسلام. لقد كان الإسلام بالنسبة لأوربا الوسيطة أخطر عوامل الإرهاب والإرهاق...، وفي الجانب العملي للمسألة كان على أوربا أن تبذل جهوداً شتى لمواجهة الخطر مترجحة بين الحملات الصليبية والتبشير والتعايش والتبادل التجاري..."[5]، وفي هذا الكلام دليل واضح على الدوافع الدينية وراء بعثات الغرب إلى الشرق.

وينقل لنا د. عبد الحليم محمود في مقدمته لكتاب "محمد رسول الله"، نبذاً عن تجاوز بعض المستشرقين على الدين الإسلامي، لا بل حتى تجاوزا على النبي محمد (ص)، فيستشهد بقول المستشرق دوزي في كتابه "مسلمو الاندلس" قوله: لعل رسول الله، كما كان يلقب نفسه - حسب زعم دوزي- لم يكن أسمى من مواطنيه، ولكن المؤكد انه لم يكن يشبههم، لا بل ذهب المؤرخ لاماس إلى أبعد من ذلك، إذ تجاوز على رسول الله، عندما قال بصلافة غير مقبولة: كان محمد، رغم معايبه (معاذ الله) يفتن البدوي الذي كان يرى ذاته في شخص النبي العربي، كما يدعوه القرآن[6].

وربما أن الرهبان الغرب قد نهجوا هذا المنوال وذلك لأنهم لم يجدوا وسيلة أفضل من تشديد الهجوم على الإسلام بغية صرف انظار الغربيين عن نقد ما عندهم من عقيدة وكتب مقدسة، وهم يعلمون ما تركته الفتوحات الإسلامية الأولى، ثُمَّ الحروب الصليبية ومن بعدها الفتوحات العثمانية في أوربا، في نفوس الغربيين من خوف ورعب من قوة الإسلام لذلك كرهوا رجاله، واستغلوا هذا الجو النفسي، لتعميق بغض الإسلام في النفوس عن طريق التزوير في الدراسة.

ويمكن أن نضيف إلى ذلك هو تسهيل عملية التبشير الذي لم يتناسوه في دراساتهم العلمية، فعمدوا إلى تشويه الإسلام في نفوس رواد مثقفيهم عن المسلمين؛ لإدخال الوهن إلى العقيدة الإسلامية، والتشكيك في الحضارة الإسلامية وكل ما يتصل بالإسلام من علم وأدب وتراث، تمهيداً لتجويفهم من أصول دينهم.

وهكذا فإنَّ إضعاف المدّ الإسلامي في أوربا، ومحاولة نشر المسيحية بين المسلمين، فضلاً عن فهم واستيعاب ما جاءت به الكتب المقدسة والقديمة لسائر الأمم والحضارات، السبب الرئيس وراء الاستشراق، لهذا كان القرآن الكريم في مقدمة الكتب التي ترجمت إلى اللغات الأجنبية، وحظى باهتمام كبير في سبيل نقد ما جاء فيه.

ولهذا لم يكن الهدف من الاستشراق هو العمل من أجل الحفاظ على دين المسيحية، وذلك من خلال إيصال صورة مشوهة ومحرفة للإسلام إلى المجتمعات الاوربية، وبث البغض في نفوس الأوربيين منه، مستعينين في ذلك بالفهم التأريخي للحروب الصليبية، وهجوم الدولة العثمانية على أوربا واستيلاءها على ارض شاسعة من بلدانهم، بل صوروا الدين الاسلامي بعبع يريد الانقضاض على مواطنيهم وسلخهم عن دياناتهم، وبذلك يحقق الاستشراق هدفه الديني بالنسبة إليهم.

وهناك اجماع بين الباحثين على أن نشاط حركة الاستشراق تعود إلى أن التفوق العسكري والحضاري للمسلمين

وتوغل الجيوش الإسلامية في جنوب أوربا أدى إلى تحول أعداد كبيرة من المسيحيين للإسلام، كما أن كثيراً ممّن بقوا على الديانة المسيحية أعجبوا في قرارة أنفسهم بالإسلام والمسلمين، ممّا حمّل الرهبان على قيادة حركة لدراسة اللغة العربية، وترجمة التراث الإسلامي بقصد تشويهه وحجب محاسنه عن الجماهير المسيحية الخاضعة لنفوذهم، ومن أجل ذلك أُنشىء أول مركز لدراسة اللغة العربية في الفاتيكان، كما أمر البابا بإدخال اللغة العربية واللغات الشرقية الأخرى في مدارس الأديرة والكاتدرائيات، وعمل أيضاً على انشاء كراسي لهذه اللغات في بعض الجامعات الاوربية[7].

إذن هذه القراءة للدين الإسلامي وما تبعها من دراسات لم يكن الهدف منها الوصول إلى معرفة خصائص الإسلام، بل تشويه حقائقه، وتحريفها والزيادة فيها والانتقاص منها، بهدف إظهار تفوق المسيحية على الإسلام، وربما يكون هذا العامل – الديني – هو الرئيس في الأسباب والدوافع التي أسهمت بتوجه الغرب إلى دراسة الشرق والاطلاع على مكنوناته، إلّا أنه لم يكن العامل الوحيد، إذ كانت هناك دوافع أُخرى اتسمت بالطابع العلمي أسهمت بدورها إلى دفع الغرب لينهل من علم الشرق وترجمة كتبه وعلومه المختلفة، تحقيقاً لأهدافهم الغربية.

(2) الدافع العلمي: لا يمكن اغفال ما للشرق من حضارة عريقة امتدت لقرون طويلة، إذ شيدت فيه حضارات وثقافات، وتفاعلت لغات وفلسفات كثيرة، ولدت علوماً وفنوناً، ونزلت شرائع وأديانا، ممّا أثارت الغرب فأهتموا بدراستها والعمل على اكتشاف أسرارها، ومن اجل تحقيق هذه الغاية أيقن الغرب بأنه لا بُدَّ له أولا إذا أراد النهوض أن يدرس لغات الشرق وآدابها وحضارتها، وخصوصاً حضارة الإسلام، نتيجة لما حققه هذا الدين ورجالاته من أهداف سياسية واجتماعية وأخلاقية وثقافية[8]، ليتمكنوا من طعنه بأساليب تفتقر إلى الأمانة العلمية.

ومن الجدير بالذكر أن الباعث على دراسة اللغات الشرقية في أول الأمر كان دينياً وحربياً في المراحل الأولى، ثُم تحول بعد ذلك إلى أغراض علمية هدفها الكشف عن ما تكنه العلوم الشرقية وفنونها من كنوز ثمينة، وهناك من يعتقد بأن المدنية الأوربية الحديثة مبعثها الشرق وعلومه وحضارته وفلسفته(9)، لاسيما وأنهم اطلعوا على حيوية الحضارة الإسلامية نتيجة الاحتكاك بالعرب المسلمين عبر الاندلس وصقلية والحروب الصليبية، ومع أن البعض يقصر تأثير الحروب الصليبية على مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية بحجة أن جنود تلك الحملات معظمهم من الأميين والفقراء.

ولا ريب أن الاستشراق كان متأثراً بهذه الدوافع العلمية الكامنة في نفسه، وربما كانت تلك العوامل هي أحدى الأسباب الرئيسة لولادة حركته ونشأة فلسفته، وانطلاقاً من هذا الأساس أقبل الغرب بعلمائه على دراسة الشرق يبحثون وينقبون ويكتشفون وينشؤون المتاحف ومعاهد العلوم، ومراكز البحوث، وكراسي اللغات، وأقسام الآداب، وفروع التاريخ والأديان، وما مثلته الحملة الفرنسية على مصر عام 1798، إلاَّ خير دليل على ذلك، فقد جلب نابليون بونابرت(1769 – 1821) معه إلى مصر العلماء والادباء والأطباء والحرفيين والمهندسين...الخ، بغية دراسة البلاد والاطلاع على أسرارها، وكانت نتاجات هؤلاء العلماء قد دونت بكتاب واحد وهو "وصف مصر" الذي صدرَ بحدود 20 مجلداً للمدة (1809 – 1823)، حوت متونه على معلومات كاملة وإحصاءات دقيقة عن طبيعة هذا البلد[10]، وفي هذا السياق ايضاً يذكر احد المؤرخين الفرنسيين، قائلاً: "إنَّ ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية...، إنَّ ما ندعوه العلم الحديث ظهر في أوربا نتيجة لروح البحث الجديدة، ولطرق الاستقصاء المستحدثة لمنهج التجريب والملاحظة والقياس... التي لم يعرفها اليونان، وهذه الروح وتلك المناهج أدخلها العرب إلى العالم الأوربي"[11]، ويؤكد ذلك ايضاً الباحث النمساوي ليوبولد ڤايس الذي أسلم وسمى نفسه "محمد أسد" قائلاً: "إنَّ العصر الحديث الذي نعيش فيه لم يدشن في مدن أوربا النصرانية، ولكن في المراكز الإسلامية، في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة"(12)، ومن هذه الأُسس توجه الغرب إلى دراسة الثقافة العربية وعلومها، بغية تحقيق مبتغاهم في الوصول إلى الشرق والكشف عن كنوزه.

ونجد في هذا القول قراءة دقيقة لما ذهبنا اليه بأن الدوافع العلمية كانت هي الأخرى قد اسهمت بميلاد الاستشراق، وزيادة الاهتمام به، لاسيما أن العلماء والباحثين والرحالة والتجار والمبشرين بدأوا يتدفقون على الشرق ويشغلون أنفسهم بدراسة لغاته وآدابه ويشرحون فلسفته، جنباً إلى جنب مع العامل الاقتصادي الذي كان هو الآخر قد اسهم بدور لم يكن بالقليل في دفع الاوربيين إلى التوجه صوب الشرق، وتحديداً بعد عصر النهضة والطفرة العلمية والاقتصادية التي رافقته، ممّا أوجد الفكرة الملحة من اجل تحقيق ذلك المبتغى، ألّا وهو الوصول إلى الشرق، واستغلال ثرواته.

(3) الدافع الاقتصادي: يمكن أن نعد النهضة العلمية والصناعية التي شهدتها أوربا بعد عصر الانقلاب الصناعي، والحاجة إلى المواد الأولية الداخلة في الصناعة، والبحث عن الاسواق من أجل تصريف منتجاتها، عاملاً مهماً دفع بالأوربيين إلى البحث في مناطق الشرق، فنشطوا في استكشافاتهم الجغرافية ودراساتهم العلمية واللغوية والثقافية وغيرها. وهناك من يعتقد بأن الهدف الاقتصادي كان الأساس في الاستشراق وقد استغل الدين والتنصير لتحقيق الأهداف الاقتصادية[13].

وطالما ظلت مصانع أوربا تنتج الفائض عن الحاجة، استمرت ضرورة الغرب من اجل التوجه نحو الشرق، واستغلال أسواقه في تصريف منتجاتها، لاسيما بعد الثورة الصناعية حيث أصبحت المعامل تتميز بالإنتاج على نطاق واسع، لذا ولَّد

عامل التبادل التجاري بين الغرب والشرق دافعاً آخرَ للاستشراق[14]، وهكذا كان العامل الاقتصادي قد خدمَ أهداف الغرب في تحقيق التوسع والاستعمار، عن طريق البحوث والتقارير والدراسات التي كان يرفعها التجار وممثلو الشركات التجارية التي كانت تعمل بوجوه مختلفة بغية تحقيق أهدافها الاستعمارية، فالاستشراق والتبشير والاستعمار يمكن عدهما ثالوثاً مترابطاً مع بعضهما البعض الآخر.

(4) الدافع السياسي والاستعماري: يُعد هذا الدافع بلا شك النقطة الخطرة في العلاقات بين الشرق والغرب، والتي حاول فيها الغرب بسط سيطرته السياسية على الشرق بالقوة، من اجل الاستحواذ على مقدراته وخيراته[15].

لا يمكن اغفال دور المستشرقين في خدمة السياسة الاستعمارية لدولهم، فبعد ضعف الشرق وفتور المشاعر الدينية، ظهرت علائم التدهور والانحلال، الذي تزامن مع بروز مظاهر الثورة الصناعية في أوربا، لهذا نمت الرغبة لدى الدول الغربية في التوسع والاستيلاء على البلدان الشرقية، فاتجهوا إلى دراسة هذه البلاد بغية التعرف على مواطن القوة فيها والإشارة إلى مواطن الضعف ليغتنموها، فرصة لتشخيص المناطق الرخوة التي يمكن النفاذ منها إلى الشرق، فكان من خلال ما قدمه المستشرقون من دراسات وبحوث ومعلومات جغرافية صبت جميعها في خدمة الاستعمار، وعلى سبيل المثال فإن بونابرت قد اعتمد كثيراً على دراسات مونج وفنتورا ومارسيل وسولكو فسكي والبارون دتوت، وجميعهم من المستشرقين[16]؛ إذ نبهت تلك الدراسات إلى ما في الشرق من خيرات وموارد واسواق.

وفي السياق نفسه ذكر بعضهم: "بأن للاستشراق صلة أكيدة بحركة الاستعمار الأوربي..."[17]، معتمدين في هذا القول على أن حركة الاستشراق قد نشأت لأول وهلة في الدول الكبرى التي انطلقت بدوافع استعمارية التي ترى أن هيبة الدول تعتمد على ما لها من مستعمرات، ولعل من الأدلة التي تؤيد هذا القول هو أن النشاط الذي كان يقوم به المستشرقون يتطلب منهم اموالاً طائلة في الوقت الذي لم يضمن لصاحبه دخلاً مضموناً، فإذا لم يكن هذا المستشرق أو ذلك معتمداً على جهة قادرة وغنية تستطيع أن تمده بالمال وتوليه الحماية الكافية، فإنه لا يستطيع أن يقوم بذلك لوحده، بل أن الغالبية منهم كانوا يعملون بدوافع حكومية، لكن هذا لا ينفي وجود بعض المستشرقين من عمل بدوافع فردية رغبة في الاطلاع ونيل المعرفة، ومع ذلك نعتقد بأن الرغبة وحدها لا يمكن أن تؤدي ذلك ما لم يتوفر لصاحبها رصيد مالي ينفق منه على رحلاته وبحوثه، مع وجود بعض الدلائل التي تؤكد على أن عدداً من المستشرقين قد ذهب إلى الشرق للاطلاع والمعرفة على حسابه الخاص.

ومن هنا يمكن الاعتراف بأن الاستشراق قد ظهر في ظلال هذه الوقائع وتلك الأحداث وترعرع في أحضانها وتطور في محيطها، فكان له أحياناً أغراض بناءة وأخرى هدامة ممّا يعقد دراسته والبحث فيه، وقد حاول الغرب معرفة ما تمكن معرفته من أحوال العالم الإسلامي حتى يسيطر عليه، فرأى أن أهم الوسائل التي توصله لهذا الغرض هو الاستشراق الذي يدرس ما عند الشرق لاستغلاله سياسياً واقتصادياً من ناحية، وللسطو على تراثه العلمي من ناحية أخرى، وفعلاً نقلوا آثاراً جليلة وكتباً نفيسة للغرب كان لها أثر كبير في نهضتهم.

ومن هذا المنطلق كانت حملة نابليون بونابرت على مصر تعكس بدقة هذا التوجه الغربي تجاه الشرق، لاسيما انه اصطحب معه فريقاً من العلماء والمستشرقين، كما ذكرنا، عدها بعض المؤرخين البداية الحقيقية للاستشراق الايجابي، مع انه جاء بهم ليتكأ عليهم في الوصول إلى أفضل الطرق لاستغلال مصر.

المبحث الثاني. الاستشراق في اقوال نابليون بونابرت

قبل الخوض في الدور الاستشراقي الذي اضطلع به نابليون بونابرت، سواء في مشاريعه عندما احتل مصر، أو ما صرح به من أحاديث وأقوال حاول فيها أن يخلع زيه الفرنسي المتميز ويرتدي جلباب الشرق الفضاض تظاهراً وتملقاً، لا بُدَّ لنا أن نلقي نظرة خاطفة على حياته ونشأته الأولى، لتعيننا على ما زودته بوسائل معينة جعلته ينحو هذا المنحى.

ولدَ نابليون بونابرت (Napoleon Bonaparte) (1769–1821) في 15 آب 1769 بمدينة اجاكسيو (Ajaccio) في جزيرة كورسيكا(Corsica)، بعد أن باعتها جنوا(Jenoa) إلى لويس الخامس عشر(Louis xv) لِما شعرت أن نفوذها بدأ يتقلص في الجزيرة, وكان والده كارلو بونابرت (Carlo Bonaparte) محامياً من الاسر العريقة في الجزيرة[18].

أكمل نابليون دراسته في مدرسة اجاكسيو، ثم انتقل إلى المدرسة العسكرية في باريس عام 1785، التي تخرج منها بعد عام برتبة ملازم ثان في الفرقة المدفعية، وبعد سلسلة من التطورات برز اسم نابليون في حصار مدينة طولون، ثم بعد ذلك الحملة على إيطاليا ومن بعدها الحملة على مصر عام 1798، ليكون بذلك البطل القومي الذي كان ينتظره الشعب الفرنسي.

برزت أهمية الشرق لدى نابليون بونابرت بشكل واضح من خلال سياسته التي غالباً ما عبرَّ عنها من خلال اقاويله وافعاله، إلّا انه - شأنه شأن بعض المستشرقين من الغرب- له بعض الرؤى المتناقضة حول الشرق، فهو في بعض الأحيان يعبّر عن مجتمع الشرق بأنه مجتمع متأخر ومتعثر في مسيرته الحضارية ويرجع ذلك إلى طبيعة الاستبداد للسلطة الحاكمة

التي تدير شؤونه، لكن من جهة أخرى يعتقد بونابرت بأن الساحة الحقيقية للعظمة إذا ما ارادها الشخص فعليه أن يتوجه للشرق، وباستطاعته أن يحقق مآثر عظيمة هناك.

وهذا الأمر ربما يكون نابعاً من اعتقاده بأن مجتمعات الشرق بما تمتلكه من مقومات البناء الحضاري، والقدرة البشرية الكبيرة، يمكنها من النهوض والتطور إذا ما توفرت لها إمكانية ذلك التقدم، غير أن استبدادية القوى الحاكمة وتسلطها كانت بمثابة حجر العثرة أمام تقدم تلك المجتمعات وتطورها، لذلك اعتقد بأن الشرق يوجد فيه المجال الفسيح الذي يتسع لتحقيق طموحه، وذلك لأن دوله – آنذاك- كانت أضعف الدول.

إنَّ حملة الشرق مهدت لنابليون بونابرت للوصول إلى دفة الحكم في فرنسا، حيث قام بانقلاب على حكومة الإدارة في عام 1799 وسيطر على الحكم، وجعلت منه الشخصية الأكثر تألقاً في الحياة السياسية الأوربية، كما ربطت اسمه بالشرق من خلال ما انتجته تلك الحملة من متغيرات على واقع الحياة المصرية، ويذكر نابليون نفسه أن الشرق كان يراوده في أحلامه، فمنذ مطلع شبابه كان نابليون يعتقد بأن الشرق يصنع المعجزات ويخلق الأسماء الخالدة والإمبراطوريات العظيمة، وقد شاءت الظروف أن تعمق حلمه الشرقي منذ أيام دراسته في الكلية العسكرية حين ربطته الصداقة "بفولني"، وهو أحد المستشرقين الفرنسيين، الذي أطلعه على العديد من الكتب والدراسات الشرقية والإستشراقية ذات الطابع الاستعماري، فضلاً عن الظروف السياسية والاقتصادية التي دفعت بالبرجوازية الفرنسية نحو تحقيق فكرة الحملة على الشرق لسد طريق الهند أمام بريطانيا، والسيطرة على البحر الأحمر[19]، وقطع الصلة بين بريطانيا ومستعمراتها في الشرق.

ولا نجافي الحقيقة إذا ما قلنا بأن بونابرت قد اعتمد في ما اتخذه من خطوات في حملته على مصر على تقارير المستشرقين الذين سبق لهم وأن وضعوا دراساتهم في متناول حكوماتهم، ومن الجدير بالذكر أن الكثير من المستشرقين الفرنسيين كانوا قد قصدوا مصر وتجولوا في طرقاتها وشوارعها ومدنها لابسين زيّ التاجر، أو الباحث، أو زيّ العالم الذي لا يشغله عن العلم شيئاً، فضلاً عن الذين لبسوا زيّ المسلم، بغية خداع سكان البلاد والتقرب إلى قلوبهم[20].

ولعل من أبرز المستشرقين الذين رافقوا حملة نابليون بونابرت على مصر هو المستشرق "فينتور دو بارادي"، الذي عُرِفَ عنه المكر والخديعة أثناء وجوده في بلدان الشرق لمدة تقرب من 40 عاماً قبل أن يلتحق بالحملة[21]، وربما يكون لكتاباته اسهامات كبيرة في توفير المعلومات القيمة عن مصر وطبيعة سكانها، واحوال مدنها(22)، لذا لم يكن من المستبعد أن توفر هذه المعلومات من خدمات يسيرة للاستعمار الفرنسي.

وقبل الخوض في مسيرة بونابرت وسياسته الشرقية، نجد من المفيد أن نذكر قصة طريفة ينقلها لنا أحد الباحثين تتعلق بمضمون دراستنا، إذ ينقل لنا صاحب هذه الرواية أن نابليون بونابرت قد كتَّبَ في عام 1789 – أي قبل الحملة على مصر بـ 9 سنوات- حكاية شرقية قصيرة تحمل عنوان " قناع النبي[23]"، يدور محتواها حول تمرد ضد احد خلفاء العباسيين، قاده نبي كاذب اسمه ابن حكيم، يقول فيها: " إنَّ ابن الحكيم الطويل القامة، والذي كان بليغاً بلاغة جازمة، كان يزعم انه رسول الله، وقد دعا إلى أخلاق طاهرة عزيزة على أفئدة الجماهير، فقد كانت المساواة في المكانة والثروات هي الشعار الأساسي لخطبه، وقد انتظم الشعب تحت بيارقه، وكان لأبن الحكيم جيش..."، ثُمَّ يروي بونابرت كيف خسر ابن الحكيم في أحدى المعارك ممّا دفع بالأخير إلى الانتحار، ويعلق بونابرت في نهاية الحكاية مستغرباً حول هذه الحقيقة، إذ يقول: " هذا المثال غريب لا يكاد أن يصدق، فإلى أي حدٍ يمكن لجنون الشهرة أن يمضي؟"[24].

ويبدو أن هذه الحكاية كانت من بنات أفكار نابليون، وليس لها حقيقة على الواقع الشرقي، وإنما أراد منها التعبير عن واقع الحياة في المجتمعات الشرقية، وطبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم، لاسيما أن بونابرت قد استعمال لغة الإسلام في الحديث عن المساواة بغية كسب الجماهير إلى جانبه، وذلك عن طريق الحديث عن المساواة بين البشر، وبهذا ربما أراد أن يكسب ود الجماهير إلى جانبه والابتعاد عن فكرة الثورة عليه. وهذا الاستعمال للقناع إنما ينطوي على فكرة معينة عن السياسة الشرقية، وربما أن بونابرت كان لديه الاقتناع بأن مجتمعات الشرق المسلمة بإمكان دفعها إلى الثورة إذا ما قدّم نفسه إليها في صورة "النبي" المنزل من الله، لذا حاول التقرب من طموحاتهم الاجتماعية والقومية، بوصفه وريثاً مميزاً للتنوير، لهذا اعتقد بأن الإسلام هو وليد طموحات الشرق إلى الاتحاد واحتلال الأمم.

وهناك العديد من الاشارات عن رؤية بونابرت نحو الشرق إذ كتب يوماً ما في منفاه – في سانت هيلانة- يقول: "إنّ الرجال الذين غيروا العالم، لم يتوصلوا إلى ذلك عن طريق كسب الرؤساء وإنما عن طريق تحريك الجماهير، فالوسيلة الأولى تنتمي إلى حقل الدسائس، وهي لا تؤدي إلّا إلى نتائج ثانوية، أما الوسيلة الثانية فهي تعبر عن مسيرة النبوغ وتبدّل وجه العالم"[25].

وبغض النظر عما قاله نابليون، يبدو أن الأخير كان يطمح من وراء ذلك تحقيق حلمٍ إمبراطوري، والسيطرة على العالم الشرقي، لاسيما أن صورة الشرق لدى الغرب كانت ضبابية تشير إلى تأخر حضاري وتخلف اجتماعي وتسيب ثقافي، لذا سال لعابه من اجل تحقيق طموحه الذي لم يكن بالضرورة الانسجام معه، وربما كانت اعترافاته الشهيرة إلى مدام دو ريموزا في عهد القنصلية، دليل على ذلك، إذ ذكرَّ لها: "في مصر، وجدت نفسي متحرراً من كوابح حضارة مزعجة. لقد

كان بوسعي أن أحلم بكل شيء وأن أرى وسائل تحقيق كل ما حلمت به، فسوف أؤسس ديانة، وسأجد نفسي على طريق آسيا، راكباً فيلاً، وعلى رأسي عمامة وبين يدي قرآن جديد أؤلفه على هواي...، لقد كان ذلك الوقت الذي قضيته في مصر أجمل أوقات عمري، لأنه كان الوقت الأكثر مثالية"[26].

ويمكن أن نلمس أولى كلمات نابليون بونابرت التي كسب بها أذهان الشرق، ونجح في كيفية التعامل معهم، في بيانه الثاني الذي أُلقي على جنود الحملة وهم في طريق توجههم نحو الاسكندرية بتاريخ 12 حزيران 1798، الذي جاء فيه: "إيها الجنود، ستقومون بغزوة سيكون لها أبلغ الأثر على الحضارة والتجارة في العالم، وستكون أكبر ضربة توجه لإنجلترا في انتظار أن تقضوا عليها بالضربة القاصمة، ستكون المسيرة شاقة، وستخوضون العديد من المعارك، وسيكون النصر حليفنا لأن الأقدار في صالحنا،... أعلموا أن الشعوب التي نحن بصدد العيش معها هي شعوب محمدية، وأول أسس إيمانهم هي شهادة ألّا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله، لا تعارضوهم، وعاملوهم مثلما عاملتم اليهود والطلاينة- الايطاليون-، راعوا مفتي ديارهم وأئمتهم كما راعيتم الأحبار والرهبان، ولتنظروا إلى احتفالياتهم وطقوسهم التي شرعها القرآن، ولمساجدهم، بنفس عين التسامح التي أوليتموها للأديرة والمعابد اليهودية، لدين موسى والمسيح،... وسوف تجدون في هذه المنطقة عادات تختلف عن تلك التي عهدتموها في أوربا، فعليكم أن تألفوها، ثُمَّ ولتعلموا أن الشعوب التي نحن بصدد التوجه إليها تعامل المرأة بصورة تختلف عنا، فقط تذكروا أن المغتصب أينما كان، إنسان متوحش، وان النهب، وان لم يُغن إلا فئة قليلة من الرجال، إلا انه يسربلنا بالعار ويدمر مواردنا ويجعلنا أعداء الشعوب التي من مصلحتنا أن نتخذها أصدقاء..."[27].

إنَّ لهذا الخطاب دلالة واضحة عن معرفة نابليون بونابرت بمعتقدات الشرق وتقاليدهم الاجتماعية، لا بل يمكن أن نقول عنها أنها عميقة المحتوى ناتجة عن دراسة متأنية، لذا جاءت توصيته لجنوده بالالتزام بعادات وتقاليد المجتمع الشرقي، لا لأنه يحترمها وآمن بها بل لمعرفته بتمسك سكان هذه المناطق بموروثهم الاجتماعي، وان خرقها قد يؤدي إلى ردة فعل عنيفة، لذا أراد من خلال ذلك الابتعاد عن كل ما يُهدّد الحملة، والتقرب من قلوب سكانها طلباً للسكينة.

وقد حاول نابليون بونابرت في خطاباته إلى الدمج المثير بين الإسلام وسياسته في بياناته الموجهة للمصريين، فعمد إلى تصوير الفرنسيين على أنهم أعداء الكاثوليك، وقاموا بمحاربة الكنيسة في روما وقضوا على فرسان مالطا أعداء المسلمين- كما صوره لهم-، إذ جاء في منشوره الذي قرأ على أهالي الاسكندرية بعد يوم من نزوله على الساحل المصري، جاء فيه: "بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، لا اله الا الله وحده ولا شريك له في ملكه... ايها المشايخ والأئمة...قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون وإثبات ذلك انهم قد نزلوا في روما الكبرى وخرّبوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحّث النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطا وطردوا منها الكواللييرية الذين كانوا يزعمون أن الله يطلب منهم مقاتلة المسلمين، ومع ذلك فإن الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني... أدام الله ملكه...أدام الله إجلال السلطان العثماني أدام الله إجلال العسكر الفرنساوي لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية..."[28]، والأنكى من ذلك إن بونابرت وصف نفسه بأنه أكثر من المماليك عبادةً لله سبحانه وتعالى، في سبيل تأليب السكان عليهم، فقد جاء في تذيل المنشور ما نصه:"وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه محمداً والقرآن الكريم"[29].

ويبدو أن نابليون من خلال المنشور اوغر صدور المصريين ضد المماليك من حيث استئثارهم لكل ما هو مباح في الحياة دون المصريين، وحاول أن يكسبهم إلى جانبه عن طريق الدين من حيث انه يعبد الله، ومن حيث إنه يحترم النبي(ص) والقرآن الكريم، وهذا القول ينطوي على سلوك وفق النهج الشرقي الذي حاول أن يتمثل به بونابرت من خلال ادعائه بأنه أصبح مسلماً، محباً للعقيدة الشرقية، وربما هذا ما دفع بالمصريين إلى نعته بـ "علي بونابرت"، بعد أن انطلت عليهم اقاويل بونابرت.

وفي تعليماته لكليبر في 22 آب 1799، الذي تولى قيادة الحملة الفرنسية بدلاً عن بونابرت، قال له: "إذا أردت أن تحكم مصر طويلاً فعليك باحترام مشاعر الناس الدينية واحترام حرمات منازلهم..."[30]، وهذا يدل على مدى ادراك بونابرت لمجتمع الشرق وكيفية التقرب إليه من خلال الجانب الديني، والتعامل مع زعمائه، وعليه يمكن أن نستخلص من ذلك أن بونابرت قد استغل مقومات العروبة والاسلام بغية التقرب إلى الشرق، فحاول التكلم ببعض كلمات اللغة العربية، وجلب المطابع من فرنسا، والاعتماد على بعض العرب والمسلمين الذين حررهم من فرسان مالطا، فكانوا له خير معين لمساعدتهم في كتابة منشوراته.

لم يكتف بونابرت بذلك، بل عمل على اشراك المسلمين المصريين في حكم بلادهم، وأنشأ ديوان القاهرة من العلماء، وجعل لهم حق مناقشة المسائل العامة، كما انشأ دواوين الأقاليم[31]، وربما يُعد هذا الإجراء من اعماله المهمة لأنه نبه المصريين لأول مرة في التأريخ بأن الشعب لا بُدَّ أن يكون له دور في إدارة شؤونه العامة.

ومن الطريف أن بونابرت ظهر أمام المصريين بصورة المستشرق الوديع، فقد تظاهر باعتناق الإسلام، وشارك

المصريين احتفالاتهم الدينية وخاصة المولد النبوي الشريف، وارتدى العمامة والجبة[32]، وفي محاولة منه للتقرب من رجال الدين، زارَ علماء الازهر في بيوتهم، وتناول طعامه بيديه مثلهم، رغبة منه لنقل صورة الاستئناس بطباعهم، كما اعتنق "جاك مينو" احد القُوَّاد الفرنسيين، الإسلام وتزوج من امرأة مصرية مسلمة، وسمى نفسه عبد الله جاك مينو[33]. رغبة منه في اظهار نفسه من المحبين للإسلام، والملتزمين بتعاليمه السمحاء، ومحبته لرسول الأمة.

ولا يخلو قيام بونابرت بدعوة علماء مصر في يوم الاحتفال بعيد الجمهورية الفرنسية بتاريخ 21 أيلول 1798 من مغزى، إذ حرص على أن يكون هذا الاحتفال مهيباً بغية التأثير على أهالي مصر، وفي أثناء الاحتفال خطبَ بونابرت قائلاً: "نحن نحمل إليكم حضارتنا ولا نرهبكم بقوتنا وانتصار العقل يفوق أي انتصار للسلاح"[34].

ويمكن أن نعد هذا القول فيه دلالة واضحة على رغبة بونابرت بنقل الفكر والثقافة الفرنسية إلى الشرق، وتحبيب المصريين إليها، والعمل على نشر حضارة بلاده بين المجتمع المصري، وربما كان نابليون يعتقد بأنه قد توصل إلى حالة كبيرة من الاطمئنان وذلك باستحواذه على خيال المصريين، والظهور امامهم بمظهر القائد المحرر للبلاد والمقيم للعدل والناصر للحق، فأقام المواكب والاحتفالات خلال أيام الأعياد والمناسبات الوطنية المصرية، ولم يخالجه شك في أنه قد أفلح بأن يطوي تحت جناحه العلماء والمشايخ المسيطرين على عقل الامة ووجدانها، وذلك بحواراته ومناقشاته معهم في المجمع العلمي أو في الديوان .

وفي السياق نفسه، كان نابليون بونابرت يمتدح النبي محمد(ص) في الكثير من المواقف، فقد قال يوماً: "لقد جاء محمد في يوم كانت النفوس متطلعة فيه إلى عبادة واحد أحد، وكانت بلاد العرب قد غشيتها الحروب الداخلية أمداً طويلاً حتى تعوَّد الناس الشجاعة والإقدام..."[35]، وفي مقام آخر ذكر: "إنَّ دين محمد قد استطاع في عشر سنوات أن يمتلك نصف العالم، في حين أن دين المسيح لم يثبت له أساس إلاَّ في ثلاثة قرون"[36]، كما صرح في بعض المناسبات قائلاً: "إنَّ محمد، بني إمبراطورية من لا شيء.. من شعب جاهل بني أمة واسعة.. من الصحاري القفر بني أعظم إمبراطورية في التاريخ... الإسلام كالمسيحية تفسدهما السياسة ويلعب القائمون عليهما بالنار إذا تخطوا حدود أماكن العبادة لأنهم يتركون مملكة الله ويدخلون مملكة الشيطان..."[37]، الامر الذي يوحي ان لنابليون قراءات كثيرة عن الشرق واطلاع واسع على التاريخ وسيرة نبي الاسلام.

وقد توضح الوجه الاستعماري الصريح لنابليون بونابرت عندما أطلق كلماته في عشية معركة الاهرام "امبابة"، عندما لاحت له الاهرامات، إذ قال: "ايها الجنود! إن أربعين جيلاً تنظر إليكم من فوق هذه الأهرام"[38]، وهذا يدلل على الوجه الاستعماري لبونابرت، وزيف الاقاويل التي اطلقها في بداية حملته على سكان الاسكندرية.

وممّا هو معروف عن نابليون انه حاول استغلال(عقيدة القضاء والقدر) لخداع المصريين وايهامهم انه إنما جاء تنفيذاً لقدر إلهي مسلط على المماليك، وان الله قدّر إنهاء دولة المماليك على يديه، وأكد هذه الفكرة في بيان العفو الذي أصدره عقب ثورة القاهرة الأولى عام 1798، إذ جاء فيه: "ايها العلماء والأشراف، اعلموا أمتكم ومعاشر رعيتكم بأن الذي يعاديني ويخاصمني إنما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره... ولا ينجو من بين يدي الله لمعارضته لمقادير الله سبحانه وتعالى، والعاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله تعالى وإرادته وقضائه...، وان الله قدر في الازل أني أجيئ من الغرب إلى أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها وإجراء الأمر الذي أمرت به، ولا يشك العاقل أن هذا كله بتقدير الله وإرادته وقضائه..."[39].

ومن خلال استقراء هذا النص يتضح أن بونابرت قد حذّر المصريين من مقاومة أعماله، وانهم سيعاقبون من الله تعالى في حال قيامهم بذلك، مبيناً لهم أن جميع افعاله مقدرة من قبل الله سبحانه وتعالى، وان اجتهاد الإنسان غاية جهده، ما يمنعه عن قضاء الله الذي قدره واجراه على يدي، حسب تعبيره، ويمكن أن نعتبر قوله هذا صدى لنظرية الحق الإلهي التي كان يؤمن بها آل بوربون في فرنسا قبل الثورة.

ولم يكتف بونابرت بذلك، بل طلب من علماء القاهرة عندما أراد أن يلاحق مراد بك وابراهيم بك، بأن يعلنوا للسكان بأن الفرنسيين جاءوا من أجل تحرير مصر، وأنهم اتباع السلطان وأنصار الإسلام، وقد لبى علماء القاهرة طلب بونابرت واصدروا نشرة طويلة بذلك ذيلها بتوقيعه كل من خليل البكري والشيخ عبد الشرقاوي فضلاً عن بقية العلماء[40].

وقد جاءت في رسالة بونابرت التي بعث بها إلى أحد ضباطه وهو الجنرال مينو في 26 شباط 1799، إشارة يحثه بها على قيامه بإلقاء خطبة الجمعة بوصفه مسلم في مسجد غزة في أثناء الحملة علي الشام إذا تمكنوا من احتلالها, إذ ذكرَ فيها: "إنَّ أفضل الطرق للحفاظ على السلم في مصر هو تبني عقيدة الإسلام أو على الأقل عدم معاداتها واجتذاب ود شيوخ الإسلام ليس فقط في مصر بل في سائر العالم الإسلامي". وإذا صحت هذه الرواية تبين مدى قدرة بونابرت في تلاعبه بعقول المشايخ والعلماء في مصر[41]، والاستهزاء بهم بعد ان تملكهم الشعور بالغبطة باعتناق نابليون وجيشه الإسلام، والتظاهر امامهم بلبس الزي الاسلامي، واداء الصلاة معهم، وبهذا يكون نابليون قد اتجه إلى الإفادة من الفكر الاسلامي في

تطويع المصريين للأهداف الفرنسية، والانكى من ذلك عمد من اجل رفع يد الدولة العثمانية عن مصر، بالإيحاء للمصريين: أنَّ بلادهم دولة مستقلة عن الدولة العثمانية تمهيداً لجعلها مستعمرة فرنسية.

وعندما توترت علاقة فرنسا مع الدولة العثمانية، بسبب وقوف الاخيرة إلى جانب بريطانيا – عدوة فرنسا- عمد بونابرت على حث المصريين للاستقلال ببلادهم، وذكرهم متعجباً بأنه لا يمكن أن تخضع "الامة العربية" للأتراك! وتساءل: كيف يمكن أن تهيمن الدولة العثمانية على مصر العريقة! وعلى شبه الجزيرة العربية، إذ قال بأن هذه الأرض مقدسة لا يمكن أن تدنس ارض العرب، ومن أجل رفع الهمم، قال نابليون: "إذا ما بعث النبي محمد اليوم فهل يختار إسطنبول مدينة الفسق والفجور.. لا.. إنه سوف يختار مصر المباركة وسوف يكون الأزهر معقله الأول..."[42].

وقد أصاب تنبأ بونابرت كبد الحقيقة، وكأنه ينتظر إلى المستقبل من ستار خفيف عندما أصدر بيان الترحيب بعودة القوات الفرنسية التي انسحبت من مصر، قائلاً: "لقد خلفتم وراءكم في مصر أثراً باقياً ولن ينسى التاريخ أبداً ما قام به الفرنسيون من نقل حضارة وعلوم أوربا إلى هناك ولن يطول الوقت حتى تثمر وتؤدي إلى نهضة تاريخية تشمل كل جوانب الحياة"[43]، بالرغم ممّا حدث للقوات الفرنسية، إلّا أن نابليون بونابرت لم يفقد الامل في بزوغ الحضارة الغربية على الشرق بشكل عام، ومصر بشكل خاص.

وكان نابليون كثيراً ما يردد أنه اعتنق الإسلام، بل إنه أعلن لأكثر من مرة أمام علماء الأزهر بأنه على استعداد هو وجيشه على أن يكونوا مسلمين، إلّا أنه هناك بعض المعوقات تمنعهم من أن يكونوا مسلمين، لاسيما مشكلة الختان والخمر، غير انه طلب من العلماء أن يجدوا لهم حلاً لتلك القضية، أو أن يصدروا فتوى بذلك[44]، ونعتقد بأن بونابرت لم يكن جاداً في عرضه هذا، وربما أراد منه سوى ايهام عقول المصريين بأن الفرنسيين محبين للإسلام، راغبين للدخول فيه، ومن ثَمَّ سيتمكن من كسبهم إلى جانبه، وإلّا فإن ادعاءاته لا تصمد أمام الحقيقة فإن قضية الخمر أو الختان لا يمكن أن تكون مشكلة بحد ذاتها، كما أن أحداث الثورة في 22 تشرين الأول 1798، وضرب الأزهر بالمدافع، ودخول القوات الفرنسية بخيولها لبنايته، أثبتت خلاف ذلك، ومن الجدير بالذكر أن بونابرت لم يكن يقيم للدين وزناً على الرغم من التظاهر بالإسلام، وذلك لأنه كان كاثوليكياً في باريس ويمكن ان يكون غير ذلك أذا ما اقتضت الضرورة.

وفي محاولة من نابليون لكسب ود مسلمي البلقان أثناء حروبه ضد الروس، وجه اليهم بعض المنشورات التي تحثهم للوقوف إلى جانب فرنسا المحبة للإسلام- حسب زعمه- ومع أن تلك المنشورات لم تجد اذناً صاغية لدى مسلمي البلقان بقدر ما تأثر بها مسلمو البلاد الشرقية وتحديداً في مصر، وفي هذا الصدد نرى من المفيد نقل ما ذكره بيير ديفيد، احد القناصل في البوسنة، عندما قال: "لا ادري أي مستشرق – يقصد به نابليون- تصور أن بوسعه أن يكتب للترك موعظة سياسية جميلة لأجل اخوتهم في الدين سعياً إلى حثهم على الحرب ضد الروس، وكيف تمتع بكل هذا الحظ بحيث تسنى للحكومة تبني فكرته..."[45]. ومع ذلك يبدو أن بونابرت قد نجحَّ لحد ما في استغلال مسألة الإسلام في التقرب من مجتمع المسلمين، غير أن مصالحة نابليون مع روسيا عام 1807 افشلت مخططاته للتقرب من الشرق[46].

ومن خلال ذلك يمكن القول إنَّ نابليون بونابرت قد جسد مبادئ الاستشراق، وطبق أُسسه بالشكل التقليدي له، إذ كان بونابرت من بين الكثير ممن سال لعابهم بغية استغلال خيرات الشرق وثرواته، لذلك أراد أن يظهر نفسه لمجتمعات الشرق بأنه حامٍ للإسلام، مطبق لمبادئه، ملتزم بتعاليمه كمنفذ للولوج من خلاله بين افراد مجتمعاته، لذا نلحظه يُردّد مزاعمه بشكل مثير من خلال ما قام به أثناء وجوده في مصر، وما افرزته تداعيات حملته على البلاد.

المبحث الثالث. الاستشراق في مشاريع نابليون بونابرت وأفعاله

جسد نابليون بونابرت افعاله عند دخول مصر بجملة من الأعمال التي ربما قصد منها التقرب إلى سكان البلاد ظاهرياً، فما أن دخل نابليون بونابرت مدينة القاهرة، واستتب الأمر له، عمد إلى إجراء بعض الإصلاحات الداخلية، فعمد إلى إنشاء العديد من المجالس الإدارية والقضائية في المدينة، وربما كان يقصد من ورائها تمدين البلاد، ولأجل حفظ الأمن وتوطيد السلام قسّمَ بونابرت القاهرة إلى اقسام عدة وجعل على كل قسم حاكماً فرنسياً، وعمل بونابرت باهتمام كبير على نظافة المدينة وتزينها، فأمر سكان المدينة بتنظيف طُرقاتها وإنارة شوارعها[47].

ومن أجل سد حاجة السكان للخدمات الصحية، أمرَ بونابرت بإنشاء مستشفى القصر العيني في القاهرة، ولم يقتصر الأمر على ذلك، إذ أمرَّ بونابرت بأن تضرب النقود باسم السلطان العثماني سليم الثالث[48]، وربما أراد بونابرت بهذا العمل أن يبين لسكان مصر عدم رغبته في استعمار البلاد، وإنما جاء محرراً لها، لذا لم يأمر بسك النقود باسم الحاكم الفرنسي، رغبة في شراء سكوت السلطان.

ولإدراكه بأهمية موقع مصر الذي يربط القسم الغربي من البلاد العربية بالأقسام الشرقية، كتب نابليون بونابرت إلى حكام الأقسام الغربية وبيَّن لهم بأن مصر ترحب بقدوم الحجاج عبر أراضيها، وامر بتعيين أميراً للحج ليقوم بتلك المهام[49]، ويبدو أن نابليون كان على علم بما تدره تلك القوافل من الحجاج في مصر من الرواج والرخاء وانعاش الوضع الاقتصادي.

ولعل من المظاهر الغربية التي تركتها الحملة الفرنسية على مصر، هو الألعاب النارية التي ظلت من تقاليد المهرجان

السنوي الذي تحتفل به مصر عندما يأتي موعد فيضان نهر النيل، إذ يذكر بأن بونابرت قد حضرَّ مهرجان الاحتفال بموعد فيضان نهر النيل، فأشترك نابليون وجنوده في هذا العيد الوطني بالنسبة للمصريين، ولم يكتف بذلك بل حضر ولائم الاعيان وجالس رجالها[50].

ولإظهار نفسه أمام المصريين بأنه الرجل المسلم، المحافظ على تعاليم دينه، حضر بنفسه احتفالات العيد النبوي التي اقامها المصريون في القاهرة، ولبى طلب خليل البكري، نقيب الأشراف، عندما دعاه لحضور وليمة الاحتفال، وتقرباً منه لمسلمي البلاد والسيطرة على مشاعرهم لم يتوان بونابرت عن دخول المسجد ليؤدي الصلاة مع حشود المصلين، فركع وسجد معهم ورتل "خاشعاً" آيات القرآن الكريم[51]، وهكذا أصبح نابليون بونابرت حاكماً مسلماً – في نظر المصريين- فأُطلق عليه بونابرت باشا، وعلي نابليون بونابرت، وكان يتجوّل وهو مرتدي الملابس الشرقية والعمامة والجلباب، وكان يتردد إلى المسجد في أيام الجمعة ويسهم بالشعائر الدينية التقليدية بالصلاة، وكوّن نابليون ديواناً استشارياً مؤلفاً من المشايخ والعلماء المسلمين مكونا من أحد عشر عالماً، وكانت هذه الأعمال جميعها بدوافع واعتبارات سياسية، والدليل ما كتبه أحد جنرالات بونابرت الذي كان من ضمن المرافقين له في الحملة، اذ كتب في مذكراته ان جميع ما قام به نابليون كان لاعتبارات سياسية لا غير[52].

وفضلاً عن ذلك، جهز بونابرت حملته بفريق من العلماء والباحثين في سائر التخصصات العلمية قدّر عددهم بحوالي 150 عضواً[53]، كما ضمت مجموعة من المستشرقين المتخصصين بالدراسات الشرقية والإسلامية، وقد ركز الغربيون على تشجيع التبشير وتربية جيل من أبناء المسلمين على الفكر والسلوك الغربي وعزله عن عقيدته وتاريخه وأمته، ثم اصطفاء نخبة من هؤلاء ليصنعهم الغرب ليكونوا نموذجاً يحتذى به الآخرون، وبعد أن افلح في اختيار عملائه وصنائعه من النخبة الوطنية التي اشرأبت نفوسهم لثقافة الاستعمار، ونظرياته وفلسفته الغربية، تمكن الغرب من تحقيق أهدافهم[54]، وقد كان لهؤلاء العلماء الدور الكبير في ارشاد نابليون حول مشروعه بحفر قناة السويس[55] وعدم إضاعة قطرة واحدة من ماء النيل إذا قدّر له أن يحكم مصر طويلا - حسب ادعائه-, وأن يجعل من مصر قاعدة لإمبراطورية هائلة تمتد من شرق السويس وحتى إيران وأفغانستان، لاسيما وانه يردد دائماً "أنا لست أقل من الإسكندر الأكبر، رغم حزني الشديد عليه، لأن الإسكندر غزا مصر في سن السادسة والعشرين بينما أنا في الثامنة والعشرين"[56]، وقد عرف عن بونابرت ولعه الشديد بالإسكندر المقدوني، وربما كانت لديه الرغبة في تقليده ومحاكاة حملاته العسكرية.

ومن الجدير بالذكر إن أبرز أثرٌ تركته تلك المجموعة من العلماء هو كتاب وصف مصر الذي يقع في 20 مجلداً من الصور والالواح، كان من بينها مجلد خاص بالأطلس والخرائط الجغرافية. كما عرف المصريين المطبعة الحديثة عن طريق البعثة التي رافقت حملة نابليون إلى مصر، فكان لها الأثر الكبير في تطور حركة الطباعة في مصر فيما بعد[57].

وقد فكّر نابليون في دمج مصر مباشرة بفرنسا ثقافياً عن طريق نقل الفكر والثقافة الفرنسية إلى داخل مصر نفسها، ويبدو ذلك في طلبه من خليفته على مصر بأن يبعث إليه بخمسمائة من المشايخ ورؤساء القبائل ليعيشوا فترة من الزمن في فرنسا، إذ ذكر له "انهم سيشاهدون في أثنائها عظمة الأمة (الفرنسية) ويعتادون على تقاليدنا ولغتنا، ولمّا يعودون إلى مصر، يكون لنا منهم حزب يضم إليه غيرهم...، ويكونون أشد استجابة على اعتياد لغة فرنسا وتقاليدها فإذا عادوا إلى مصر كانوا حزباً لفرنسا وعلى مر الأيام يكبرون ويتولون المناصب صغيرها وكبيرها، ويكون أثرهم أشد تأثيراً في بناء جماهير كثيرة تبث الأفكار التي يتلقونها في صميم شعب دار الإسلام في مصر..."[58].

إنَّ التظاهر بالولاء للسلطان العثماني من قبل بونابرت، لم يدم طويلاً، نتيجة لتحالف الدولة العثمانية مع بريطانيا، فعمد بونابرت إلى تبني فكرة المطالبة باستقلال مصر عن الدولة العثمانية، وبهذا أصبح أمام المصريين مبشراً بالعروبة والقومية العربية، بعيداً عن الدولة العثمانية، وكان يردد عباراته دائماً التي توضح للفرنسيين بأنه قدِّمَ لخلاصهم من المماليك، وبأنه يريد أن يعيد المجد والعز للعرب، وان يسود الخير والتفاهم بين مصر وفرنسا، مبيناً لهم بأن فرنسا تريد الخير لمصر وشعبها[59]، ويبدو أن نابليون بونابرت، فيما يتعلق بشؤون الشرق، قد ابتعد كثيراً عن المعتقدات الشائعة المستمدة من كتب المسيحية وكانت له في هذا الصدد نظراته الخاصة.

وفي الوقت الذي كان فيه نابليون يلوح بشعار الإسلام، لجأ إلى فكرة تدعو جميع يهود آسيا وأفريقيا للانضواء تحت رايته بغية إحياء أورشليم القديمة، والانكى من ذلك قيامه بتسليح بعضٍ منهم[60]، الأمر الذي تشبث فيه اليهود وعدوه مستمسكاً من قبل نابليون لتوطين اليهود في ارض فلسطين وهو ما ظل اتباع اليهودية يرددونه طوال تلك الحقب التاريخية.

ويذهب أحد الكتاب الإنكليز إلى التأكيد على ما أقره بونابرت أثناء احتلال مصر في الدعوة لإيجاد موطن لليهود، إذ كانت هناك إشارة من قبل نابليون بونابرت بإنشاء موطن لليهود بالتعاون مع فرنسا في منطقة شمال مصر وفلسطين، ويؤكد بأن هذا الموطن سيكون أفضل عوناً للمصالح الفرنسية في المنطقة[61].

وإذا صحت هذه المعلومات، فإننا نعتقد بأن بونابرت أراد من خلال ذلك أن يكسب اليهود إلى جانبه في حملته المرتقبة – آنذاك – ضد بلاد الشام، وعلى الخصوص وزير تموين عكا اليهودي بغية فتح أبواب المدينة لجحافله، فضلاً عن أن بعضاً من اليهود في بلاد الشام كانوا يتولون مناصب إدارية مهمة، لذا أراد أن يضمنهم لجانبه، وهذا التقلب والمراوغة

تكشف الوجه الحقيقي للاستشراق.

ويؤكد الكاتب الفرنسي كريستيان تشيرفيلز، في كتابه "بونابرت والإسلام" والذي نشر عام 1914 باللغة الفرنسية[62] على أن نابليون أسيء فهمه، ولفقت ضده الاتهامات تبريراً لعزله، وأوضح أنه أعلن إسلامه، وأنه كان معجباً بنبي الإسلام أيما إعجاب، ما جعله يسهب في الحديث عنه بمذكراته، فتحدث عن سياسته العامة تجاه الرعية وغزواته وانتصاراته وشريعته ووسطية دينه، وكان في مصر يتردد إلى المسجد في أيام الجمعة، ويسهم بالشعائر الدينية التقليدية بالصلاة، وكون ديواناً استشارياً مؤلفًا من العلماء ومشايخ المسلمين[63].

ويضيف الكاتب أن ما جاء في البيان الذي ألقاه نابليون بونابرت أمام العلماء والأئمة ما يؤيد ذلك، إذ قال: "أؤكد لكم أنني أحب الإسلام، وأبجل الرسول، وأحترم القرآن، وهذه الخدمات والمزايا التي أغدقها عليكم بسبب حبي للرسول أكرم خلق الله كلهم، وقد وعدت بأمرين لهما أهمية كبيرة، الأول: أن يُبنى في القاهرة مسجداً عظيماً لا يرى الإنسان نظيراً له في أي مكان في العالم، ثانياً: أنه سوف يعلم كل إنسان بدخوله في دين محمد الذي اختاره الله تعالى"[64]، وذهب إلى أبعد من ذلك فزعم بأن الحكم الذي كونه بونابرت عن شخصية محمد (ص) لا يوجد أي احتمال لأدنى ريب حوله، فكان يؤمن بأن محمداً كان نبياً ورسولاً ومن أكثر الأنبياء قدسية وأكثرهم فاعلية.

ويستند في اطروحاته على ما نشرته صحيفة لومونيتور الفرنسية، إذ نشرت تلك الصحيفة خبراً مثيراً وقتئذ – حسب ما تدعي- في عام 1798، ذكرت فيه أن الامبراطور الفرنسي اعتنق الدين الإسلامي وغير اسمه إلى "علي نابليون بونابرت"، كما أقنع الجنرال جاك مينو أحد جنرالات جيشه باعتناق الإسلام وأشرف شخصياً على نطقه بالشهادتين، ويستدل على ذلك من انه إذا ما كانت تلك الصحيفة التي يمكن اعتبارها مصدراً موثوقاً به، والصحيفة الرسمية الناطقة باسم الدولة والأخبار التي تنشرها تعبر عن وجهة نظر الدولة تنشر خبراً في مثل هذه الأهمية عن الإمبراطور الفرنسي الذي كان في أوج عظمته وقوته في ذلك الحين إلا إذا كان الخبر صحيحاً[65]، ولكن هذا لا يعني أن كل صحيفة رسمية مهما كانت سعة انتشارها يعد صحيحاً كل ما تنشره، فما دامت رسمية فهي تكون اسيرة لما تريده الحكومة في كتاباتها، لا سيما وأنه كان يعيش في وسط مسيحي يرغب رهبانه بنشر المسيحية إلى أقصى حد، فكيف يرتضي أن يرتد بونابرت زعيمه عن المسيحية ويعتنق الإسلام..

وممّا يثير العجب والاستغراب تأكيده على أن نابليون مات وهو مسلم، مستشهداً بأجزاء من مذكراته في جزيرة سانت هيلانة، يقول فيها: أنا نفسي مسلم موحد بالله وأؤمن بالرسول محمد ﷺ، وأتمنى إلا يتأخر الوقت لكي أتمكن من توحيد الحكماء العارفين في بلادي، وأن أقيم نظاماً متسقاً يقوم على مبادئ القرآن وهو الوحيد القادر على إسعاد البشر، بل لخص ببساطة الإسلام قائلاً: "إنه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله"[66]، وهذا حسب اعتقاده يخالف الرأي القائل بأن بونابرت أعلن اعتناقه للإسلام كمناورة سياسية أثناء وجوده في مصر، فهو قد اعترف بهذه الشهادة أثناء انهياره التام في منفاه أي لم يكن بحاجة إلى مناورة أو استعادة إمبراطوريته الضائعة، ولكن اذا صحت تلك الرواية فيا ترى أن نابليون عندما توفي في عام 1821 هل دفن وفق الطقوس الاسلامية، من قراءة الفاتحة عليه ومن غسل ومن كفن، أو حسب ما تعارفت عليه التقاليد الكاثوليكية.

ويعترف سكرتير نابليون أن امبراطوره كان يناقش الفقه الإسلامي مع علماء الأزهر ورجال الدين، وأنه كان يتحدث كمسلم، لكن هذا لا يعني ويلصق صفة الايمان به، وانما يكون حواره نوعاً من مناقشة الافكار الجديدة التي اطلع عليها في مصر، إذ يجمع المؤرخون على أنه كان شديد الإعجاب بالشريعة الإسلامية إلى درجة أن معظم مواد قانونه الذي عرف باسم قانون نابليون مستمد من أحكام الإمام مالك[67].

وأضاف سكرتيره: إن نابليون ناقش في عدة مناسبات مسألة اعتناقه الدين الإسلامي مع رجال الدين في مصر أثناء وجوده فيها، وظهر في مناسبات عامة بالزي الذي يرتديه رجال الدين المسلمون، ولعل هذا هو السبب في العداء البريطاني الشديد له في السنوات الأخيرة من حكمه والذي بات حقاً يشكل خطراً عليهم[68]، والواقع أن هذه فكرة تثير الضحك عندما يناقش المسلمين في مصر، بدلاً من أن يناقش رجال الدين الكاثوليك بخصوص الاسلام ومعتقداته.

إنَّ هذه المعلومات الخطيرة التي ذكرت عن أكبر اباطرة أوربا في القرن التاسع عشر، ربما تكون اقرب إلى أن نابليون قد اعجب بالنبي محمد لشخصيته وقيادته الحكيمة التي انتشلت بدو الصحراء الذين كانوا يطاردون كل ما هب ودب ليأكلوه نتيجة لفقرهم وقلة مواردهم، وأوصلهم إلى امة متحضرة يستنير العالم بزيت ضوئها، وليس كنبي مرسل يؤمن برسالته السماوية، والدليل على ذلك انه لو كان ايمانه صادقاً بمحمد، لأعلن الإسلام الدين الرسمي منذ استيلائه على السلطة عام 1800؛ لذلك فإنْ صحت تلك المذكرات فهي ليس أكثر من اعجاب بقصة مثيرة بطلها رجل من الصحراء نشر دينه من أقصى آسيا إلى وسط أوربا، فمهما كانت رصانة الكتب والصحف التي ذكرت عن اسلام نابليون لا تتعدى ما ذكرناه اعلاه، كما أنَّ إعجابه بالإسكندر المقدوني[69]، من خلال قراءاته ربما يكون قد أُعجب بالنبي محمد بنفس الشاكلة، نتيجة لما تمتعا به من شخصية قوية تمكنت من صنع التاريخ الجديد للعالم آنذاك.

ثُمَّ إنَّ الدخول في الإسلام تصاحبه ممارسات خاصة كالختان، فيا ترى هل اختتن نابليون، وإذا كان كذلك لذكر من قام بتلك العملية، ولم يشر أحد من مقربيه انه ظل يمارس الشعائر الدينية من صلاة وصوم، كما انه – إذا صحت تلك المزاعم- لو كان قد أعلن اسلامه لأصدرت الكنيسة الكاثوليكية امراً عليه بالحرمان، لأن في ذلك انشقاقاً خطيراً يهدد المذهب الكاثوليكي، ومن ناحية أخرى لو كان نابليون يحترم الإسلام، لدعا أحد كبار شيوخ الأزهر لمباركة تتويجه، لكن التاريخ يذكر لنا أن نابليون حينما توج في 1804 امبراطوراً، هدد بشكل غير مباشر البابا الذي دعاه لحضور حفلة التتويج لأن التقليد السائد في تلك المدة أن البابا هو الذي يضع التاج على رؤوس الملوك من اتباعه، إلاَّ أن نابليون وضع التاج بيده على رأسه وأوعد وعربد، وربما قصد فيه البابا أيضاً عندما قال: "الله اعطانا هذا التاج فالويل لمن يلمسه؟"، فالبابا من أبناء جنسه فكيف بالعرب الذين هم يخالفون دينه؛ لذلك فإذا كان مسلماً فهل يدعو البابا لحضور حفلة تتويجه؟ وعليه فإنَّ مثل هذه الكتب تُعد خارج رحم التاريخ، إذا لم يكن القصد منها الإثارة وتأليه امبراطور أغرق أوربا في بحر من الدماء، وفي مصر ربط جنوده خيولهم في باحة الأزهر الشريف، ومثل هذه الحالة يعد عند فقهاء المسلمين زنديقاً لا مسلماً، ومع أن بعضاً من المشايخ طأطأوا له الرؤوس طمعاً في أكياس الذهب، لكن الأكثرية لم تقف إلى جانبه، وعليه يمكن القول أن نابليون جعل العمامة التي اعتمرها في مصر، والإسلام الذي تظاهر به، بازاً يصطاد به مشايخ الازهر وقلوب الناس العاديين.

الخاتمة

يتضح من خلال سياسة نابليون بونابرت تجاه الإسلام أن له خاصية المناورة بين مختلف الاديان والايديولوجيات، وذلك بقدر إلحاح الحاجة إلى مثل هذه المناورة، إذ كان نابليون في بلاد الإسلام يتظاهر بأنه مسلم ملتزم بتعاليمه ومعتقداته، في حين تراه في بلاد الغرب كاثوليكياً متعصباً لديانة المسيح، مع العلم انه قضى على تسلط البابا وقوة الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا.

ويتبين من خلال استقراء سياسة بونابرت أنه كان قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالشرق، لاسيما أنه قرأ للكثير من كتابات المستشرقين، بل إنه كتب حكاية عن الشرق بنفسه، مثَّلت نظرته إلى بلاد الإسلام، ومع ذلك نرى أنه – شأنه شأن معاصريه- كانت لديه رؤية متناقضة عن الشرق، فهو من جهة يرى في الشرق بلاد متخلفة تحكم من قبل قوة متسلطة، ومن باب آخر يرى في الشرق مكامن العظمة والقوة والشهرة.

وعليه يمكن القول إن بونابرت قد اعتمد صيغة الشرق والإسلام بغية في التقرب من حشد تلك المناطق لصالحه، والتقرب منها بعد أن أدرك مكامن ضعفها، لذا نراه يدعم الاحتفالات الدينية، والاشتراك فيها، وهو ما دفع ببعض المسلمين إلى الاعتقاد بأن بونابرت قد أصبح مسلماً فعلاً، غير أن الواقع كان خلاف ذلك.

ولعل أبرز ما يدلل على حقيقة بونابرت الرسالة التي كتبها إلى خلفه في قيادة الجيش الفرنسي بعد أن غادر مصر عائداً إلى فرنسا، والتي احتوى مضمونها على مجمل تفكير بونابرت، وهو فرنسة مصر، من خلال إرسال البعثات إلى فرنسا وتطبعها بالطابع الغربي، وبهذا يكون بونابرت قد كشف عن قناعه الحقيقي.

والأكثر ثباتاً هو ما أكده بونابرت بنفسه في مذكراته عندما قال إن فكرة اعتناق الإسلام وبياناته إلى المسلمين لم تكن سوى عملية احتيال على المصريين، وتطرق إلى أكثر من ذلك حينما تهكم على البيان الذي قدَّم نفسه فيه في صورة ملهم ورسول من الله يتلقى الوحي عنه، وقال إن هذا كان جميعه احتيالاً من أعلى طراز بغية تحقيق هدفه في فرض السيطرة على مصر، وكسب ودَّ زعمائها.

هوامش البحث

(1) ظهرت العديد من الدراسات العربية التي عالجت مسألة الاستشراق، وقد عرَّفت هذه الدراسات مفهوم الاستشراق بتعاريف عديدة، إلاَّ أنها لا تبتعد عن مضمون كونه اهتماماً للغرب بجميع متعلقات الشرق، سواء كان سياسياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً أو استعمارياً، فإنها تصب في رافد واحد، غايته تطبيق الاستعمار والكيفية في الوصل إلى ذلك الهدف، وان اختلفت السبل.

(2) للطلاع على أهم تعاريف الاستشراق، يمكن الرجوع إلى: إدوارد سعيد، الاستشراق "المعرفة. السلطة. الانشاء"، تعريب: كمال أبو ديب، مؤسسة الابحاث العربية، بيروت، 1981؛ مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، دار الوراق للنشر والتوزيع، د. م، د. ت، ص19 – 20.

(3) أن أهم الدراسات التي تناولت هذا الموضوع، على سبيل المثال لا الحصر، نذكر : إدوارد سعيد، المصدر السابق؛ مصطفى السباعي، المصدر السابق؛ عبد المتعال محمد الجبري، الاستشراق وجه الاستعمار الفكري، مكتبة وهبة، القاهرة، 1995.

(4) مصطفى السباعي، المصدر السابق، ص20.

(5) ريتشارد سوذرن، صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى، ترجمة: رضوان السيد، ط2، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2006، ص 37.

(6) انظر مقدمة الدكتور عبد الحليم محمود لكتاب محمد رسول الله، تأليف: اتيين دينيه وسليمان إبراهيم الجزائري، ترجمة: عبد الحليم محمود ومحمد عبد الحليم محمود، ط3، القاهرة، 1959، ص28 – 29.

(7) بخصوص ذلك، يمكن الرجوع إلى: يحيى مراد، من قضايا الاستشراق " بحوث ودراسات"، د.م، د.ت، ص51 – 52.

(8) وفيما يتعلق بموضوع دراستنا، نال الأدب الفرنسي حيزاً كبيراً من هذا التأثر، فقد تأثر الأدب الفرنسي ببعض التيارات التي انتهت اليه من الشرق ولاسيما الشرق العربي، إذ تناول معظم أدباء فرنسا موضوعاته، وذكر البعض أن الشرق قد أوجد في الأدب الفرنسي ألواناً غنية وروحاً صوفية وشيئاً من العبث والمجون، وظهرت على أدب: رابله، ورونسار، ومونتين، في عصر النهضة، حتى العصر المتأخر استقى بعض أدباء فرنسا الشيء الكثير من التراث الشرقي، للمزيد يراجع: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج1، ط4، دار المعارف، القاهرة، 1980، ص155.

(9) بهذا الخصوص يمكن الرجوع إلى: زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب " أثر الحضارة العربية في أوروبة"، تعريب: فاروق بيضون وكمال دسوقي، مراجعة: مارون عيسى الخوري، دار الجيل ودار الافاق الجديدة، بيروت، ط8، 1993.

(10) يحيى مراد، المصدر السابق، ص78.

(11) محمد عبد الله الشرقاوي، الاستشراق – دراسة تحليلية تقويمية، القاهرة، د.ت، ص69.

(12) ليوبولد ڤايس، الإسلام على مفترق الطرق، تعريب: عمر فروخ، بيروت، 1951، ص41.

(13) مصطفى خالدي وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية: عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى إخضاع الشرق للاستعمار الغربي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1982، ص 168-169.

(14) مصطفى السباعي، المصدر السابق، ص23.

(15) إن اعتماد نابليون بونابرت كانت كبيراً على ما كتبه المستشرقين، ويرى البعض أن منشورات بونابرت التي اذاعها على المصريين، قد صيغت من واقع خبرة هؤلاء المستشرقين ومعارفهم، ينظر: محمد عبد الله الشرقاوي، المصدر السابق، ص69.

(16) محمد عبد الله الشرقاوي، المصدر السابق، ص70.

(17) فرج محمد الوصيف، مصر بين حملتي لويس ونابليون، دار الكلمة للنشر والتوزيع، مصر – المنصورة، 1998، ص34.

(18) للمزيد من التفاصيل عن حياة نابليون بونابرت. يراجع: يوسف سعد يوسف، نابليون بونابرت، المركز العربي الحديث للنشر، مصر الجديدة، 1988، ص5-23؛ الياس طنوس الحويك، تاريخ نابليون الأول، مج1، منشورات دار الهلال، بيروت، 1981، ص19-30.

(19) زينات بيطار، الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي، من كتب سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1992، ص48.

(20) محمد عبد الله الشرقاوي، المصدر السابق، ص70؛ زينات بيطار، المصدر السابق، ص48؛ فرج محمد الوصيف، المصدر السابق، ص36.

(21) فرج محمد الوصيف، المصدر السابق، ص36.

ولم يقتصر الأمر على المستشرقين بمعرفة احوال الشرق، بل كان لنابليون بونابرت اهتماماته هو الأخر، إذ عرف عنه قراءاته عن الشرق والاطلاع على احواله، فضلاً عن تعلمه للقرآن الكريم عن طريق تلقينه من بعض الذين يجيدون اللغة العربية، ويضاف إلى ذلك أن بونابرت اطلع قبل الحملة على احوال الإسلام وحكم الخلفاء والسلاطين المسلمين، يراجع: محمد عودة، الحملة الفرنسية على مصر تحتفل أو لا تحتفل، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 1999، ص8.

(22) زينات بيطار، المصدر السابق، ص48.

(23) يُذكر أن هذه الحكاية مستمدة من ماريني، وهذا الأخير أخذها بدوره من إيربلو، والاثنان من أشهر الكتاب الفرنسيين، ومع ذلك فإن فحوى هذه الحكاية مأخوذة من التراث الاسلامي، وان قصة هذا النبي الكاذب قد افتعلت خلال أيام الخليفة هارون الرشيد، للطلاع على ما كتبه نابليون بخصوص حكاية النبي المقنع: يراجع: هنري لورنس، بونابرت والإسلام – بونابرت والدولة اليهودية، تعريب: بشير السباعي، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص35 – 39.

(24) نقلاً عن: هنري لورنس، المصدر السابق، ص14.

(25) المصدر نفسه، ص16.

(26) هنري لورنس، المصدر السابق، ص17؛ محمد عودة، المصدر السابق، ص32.

(27) جوزيف ماري مورايه، مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر، ترجمة وتقديم: كاميليا صبحي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000، ص26.

(28) نقلاً عن: عبد العزيز نوار، النهضة العربية الحديثة (حركة علي بك الكبير- التنافس الاستعماري- الحملة الفرنسية على مصر- صعود الدولة السعودية الأولى)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2002، ص107 – 108؛ ويوجد نص الرسالة في : جمال سعيد عبد الغني، الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني " مخطوطة – ضيانامة- للدارندلي، عزت حسن أفندي الدارندلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999، ص138-138. مع اختلاف في المنشور.

(29) جمال سعيد عبد الغني، المصدر السابق، ص139؛ فرج محمد الوصيف، المصدر السابق، ص40؛

وفي هذا الصدد يذكر أن نابليون قبل نزوله إلى الساحل المصري كان قد ارتدى قلنسوة وعباءة شرقية، يراجع: محمد عودة، المصدر السابق، ص10.

(30) راجع نص الرسالة في : هنري لورنس، المصدر السابق، ص20؛ عبد العزيز نوار، المصدر السابق، ص168- 171.

(31) علي حسني الخربوطلي، الاستشراق في التاريخ الاسلامي، معهد الدراسات الإسلامية، الجيزة، 1976، ص59 – 60؛ جمال سعيد عبد الغني، المصدر السابق، ص158.

(32) فرج محمد الوصيف، المصدر السابق، ص40.

(33) علي حسني الخربوطلي، المصدر السابق، ص61.

يذكر انه عندما قارب موعد المولد النبوي وصلت الأخبار إلى بونابرت بأن علماء الازهر لا يرغبون في اقامة الاحتفالات بهذه المناسبة نتيجة لافتقارهم للأموال التي تمكنهم من اقامة المراسيم، بأرسل اليهم بونابرت الأموال وحثهم على الاحتفال، كما انه حضر مأدبة كبرى في بيت احد العلماء وتناول الطعام بيديه على الطريقة الشرقية، يراجع: محمد عودة، المصدر السابق، ص18.

(34) جوزيف ماري مواريه، المصدر السابق، ص67 – 68؛ محمد عودة، المصدر السابق، ص19.
(35) إبراهيم رمزي، كلمات نابليون، تعريب : إبراهيم رمزي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014، ص55.
(36) المصدر نفسه، ص55.
(37) المصدر نفسه، ص56.
(38) نقلاً عن: حسن جلال، حياة نابليون، ج1، سلسلة المعارف العامة، مطبعة الاعتماد، القاهرة، 1964، ص169؛ محمد عودة، المصدر السابق، ص14.
(39) محمد عبد الله الشرقاوي، المصدر السابق، ص70.
(40) حسن جلال، المصدر السابق، ص173؛ ولم يكتف بونابرت بذلك، بل أكد للمصريين في أكثر من مناسبة بأن الفرنسيين يعبدون الله أكثر من المماليك، كما أنهم يجلون الرسول(ص)، ينظر: محمد عبد الله الشرقاوي، المصدر السابق، ص70.
(41) تودد بونابرت لعلماء الازهر، وسعى إلى التقرب منهم رغبة في كسبهم إلى جانبه، فقد قال ذات مرة:" الازهر هو السوربون في مصر، ولا بُدَّ أن نعامله على هذا الاساس"، نقلاً عن: محمد عودة، المصدر السابق، ص17.
(42) محمد عودة، المصدر السابق، ص23؛
ويبدو أن من كثرة اهتمام نابليون بالشرق، وولعه به أطلق على أحدى الفتيات التي تعرف عليها في فرنسا بعد عودته من مصر، والتي تدعى بولين (Pauline)، اسم كليوباترا أو قديسة الشرق.
(43) محمد عودة، المصدر السابق، ص50.
(44) المصدر نفسه، ص23.
(45) هنري لورنس، المصدر السابق، ص25.
(46) بخصوص ذلك، يراجع: جاك فريمو، فرنسا والاسلام من نابليون إلى ميتران، تعريب: هاشم صالح، دار قرطبة للنشر والتوثيق والابحاث، ليماسول – قبرص، 1991، ص40 – 42.
(47) حسن جلال، المصدر السابق، ص172.
(48) المصدر نفسه، ص172.
(49) المصدر نفسه، ص173.
(50) حسن جلال، المصدر السابق، ص174.
(51) محمد عودة، المصدر السابق،ص18-19.
(52) جوزيف ماري مواريه، المصدر السابق، ص59.
(53) وكان من بينهم عالم الرياضيات "مونج" وعالم في الكيمياء" بيرتوليه"، وعالم في الطبيعيات "جوفروا سان هيلير". كما رافقه مجموعة من الأطباء والفلكيين والفنانين والرسامين والتقنيين والآثاريين. ينظر: جاك فريمو، المصدر السابق، ص33.
(54) جاك فريمو، المصدر السابق، ص33.
(55) عُهِدَّ نابليون بونابرت بدراسة مشروع ربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط إلى رئيس مهندسي الري والطرق والجسور، فقضى هذا سنين في فحصه ودراسته يعاونه عدد كبير من مهندسي الغزاة، ورفع تقريراً إلى نابليون، ولكنَّ بعد مغادرته مصر يقترح فيه أن تحفر ترعة من مدينة السويس إلى البحيرات المرة إلى الاسكندرية، وحبذ كذلك حفر ترعة أخرى تصل البحرين المتوسط والاحمر وتمتد من بيلوز – وهو موضع يقع إلى الشرق من بور سعيد- على البحر المتوسط إلى مدينة السويس على البحر الأحمر، ولكنَّ هذا المهندس ظنَّ خطأً أن البحر الأحمر يعلو على البحر المتوسط بمقدار تسعة امتار، وقد نشر هذا المشرع في كتاب وصف مصر، وقرأه فردناند دلسبس فيما بعد وأُعجب به وصمم على تحقيق وصل البحرين – المتوسط والاحمر- بقناة، وقد تمَّ له ذلك فعلاً. ينظر: جعفر شاكر خصباك و عبد الأمير محمد أمين، التاريخ الحديث للوطن العربي، ط7، بغداد، 1975، ص21.
(56) هنري لورنس، المصدر السابق، ص21.
(57) محمد عودة، المصدر السابق، ص22.
(58) هنري لورنس، المصدر السابق، ص21؛ عبد العزيز نوار، المصدر السابق، ص167.
(59) محمد عودة، المصدر السابق، ص23.
(60) هنري لورنس، المصدر السابق، ص45.
(61) المصدر نفسه، ص46.
(62) كريستيان تشيرفيلز، نابليون والإسلام من الوثائق العربية والفرنسية، تعريب: زين نجاتي، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2002، ص10. (النسخة المترجمة إلى العربية)
(63) للتفاصيل، يراجع: المصدر نفسه.
(64) المصدر نفسه، ص103 – 104.
(65) المصدر نفسه، ص12.
(66) كريستيان تشيرفيلز، المصدر السابق، ص29.
(67) المصدر نفسه، ص104.
(68) المصدر نفسه، ص104.
(69) كريستيان تشيرفيلز، المصدر السابق، ص26.

قائمة المصادر

(1) إبراهيم رمزي، كلمات نابليون، تعريب: إبراهيم رمزي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014.
(2) كريستيان تشيرفيلز، نابليون والإسلام من الوثائق العربية والفرنسية، تعريب: زين نجاتي، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2002.
(3) اتيين دينيه وسليمان إبراهيم الجزائري، محمد رسول الله، ترجمة: عبد الحليم محمود ومحمد عبد الحليم محمود، ط3، القاهرة، 1959.
(4) إدوارد سعيد، الاستشراق "المعرفة. السلطة. الانشاء"، تعريب: كمال أبو ديب، مؤسسة الابحاث العربية، بيروت، 1981.
(5) جاك فريمو، فرنسا والاسلام من نابليون إلى ميتران، تعريب: هاشم صالح، دار قرطبة للنشر والتوثيق والابحاث، ليماسول – قبرص، 1991.
(6) جعفر شاكر خصباك وعبد الأمير محمد أمين، التاريخ الحديث للوطن العربي، ط7، بغداد، 1975.
(7) جمال سعيد عبد الغني، الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني " مخطوطة – ضيانامة- للدارندلي، عزت حسن أفندي الدارندلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999.
(8) جوزيف ماري مورايه، مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر، ترجمة وتقديم: كاميليا صبحي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000.
(9) حسن جلال، حياة نابليون، ج1، سلسلة المعارف العامة، مطبعة الاعتماد، القاهرة، 1964.
(10) ريتشارد سوذرن، صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى، ترجمة: رضوان السيد، ط2، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2006.
(11) زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب "أثر الحضارة العربية في أوروبة"، تعريب: فاروق بيضون وكمال دسوقي، مراجعة: مارون عيسى الخوري، دار الجيل ودار الافاق الجديدة، بيروت، ط8، 1993.
(12) زينات بيطار، الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي، من كتب سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1992.
(13) عبد العزيز نوار، النهضة العربية الحديثة (حركة علي بك الكبير- التنافس الاستعماري- الحملة الفرنسية على مصر- صعود الدولة السعودية الأولى)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2002.
(14) عبد المتعال محمد الجبري، الاستشراق وجه الاستعمار الفكري، مكتبة وهبة، القاهرة، 1995.
(15) علي حسني الخربوطلي، الاستشراق في التاريخ الاسلامي، معهد الدراسات الإسلامية، الجيزة، 1976.
(16) فرج محمد الوصيف، مصر بين حملتي لويس ونابليون، دار الكلمة للنشر والتوزيع، مصر – المنصورة، 1998.
(17) ليوبولد ڤايس، الإسلام على مفترق الطرق، تعريب: عمر فروخ، بيروت، 1951.
(18) محمد عبد الله الشرقاوي، الاستشراق – دراسة تحليلية تقويمية، القاهرة، د.ت.
(19) محمد عودة، الحملة الفرنسية على مصر تحتفل أو لا تحتفل، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 1999.
(20) مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، دار الوراق للنشر والتوزيع، د. م، د. ت.
(21) مصطفى خالدي وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية: عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى إخضاع الشرق للاستعمار الغربي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1982.
(22) نجيب العقيقي، المستشرقون، ج1، ط4، دار المعارف، القاهرة، 1980.
(23) هنري لورنس، بونابرت والاسلام – بونابرت والدولة اليهودية، تعريب: بشير السباعي، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1998.
(24) الياس طنوس الحويك، تاريخ نابليون الأول، مج1، منشورات دار الهلال، بيروت، 1981
(25) يحيى مراد، من قضايا الاستشراق " بحوث ودراسات"، د.م، د.ت.
(26) يوسف سعد يوسف، نابليون بونابرت، المركز العربي الحديث، مصر الجديدة، 1988.

(27) Liste Des Professeurs Depuis La Fondation Du Collège De France En 1530.
(28) http://www.college-de-france.fr/media/chaires